الثورة العثمانية

من ينظر في حوادث الكون بعين التروي يجد انها تسير في سيرها اسلوبين مختلفين الواحد اسلوب التدرج اي التغير البطيء المتوالي والثاني اسلوب الانقلاب الفجائي . والغالب ان يشترك الاسلوبان معاً فيكون الاول ممهداً للثاني . فاذا اختل بناء بيت انصدعت جدرانهُ كلها او بعضها ومال على احد جوانبهِ ميلاً طفيفاً وقد تمرُّ عليهِ الايام والسنون وميلهُ لا يزيد في اليوم والشهر زيادة يشعر بها ثم ينهدم كلهُ بغتةً في لحظة من الزمان . واذا فعلت الزلازل بجبل نقدَّت جانباً منهُ فقد يبقى ذلك الجانب متصلاً بالجبل وتمرُّ السنون وهو يزيد انفصالاً عنهُ زيادة طفيفة جدًّا لا تكاد تظهر لعين الرائي الى ان تختل الموازنة ويقع مركز الثقل خارج القاعدة او يتغلب الثقل على قوة الاتصال فينهدم ذلك الجانب بغتةً ويخرّب في طريقهِ القرى والمزارع

وقد حدث شيء من ذلك في البلاد العثمانية فان سوء الادارة الذي حل بها منذ خمسة وعشرين عاماً زاد رويداً رويداً حتى انتهكَ النفوس الكبيرة فانصدع بعضها وهاجر البعض الاخر من البلاد وجاهر بمقاومة سوء الادارة وكشف عيوبهِ وهو لا يزيد الاَّ استحكاماً الى ان ضاقت سلفانهُ على ضباط الجيش العثماني وأكثرهم من المتعلمين المتهذبين الذين يأنفون من الضيم ولا يصبرون على المذلة اذا استطاعوا الخروج منها . وكان اصحاب النفوس الكبيرة الذين غادروا البلاد العثمانية قد اتحدوا على التنديد بالادارة السيئة الضاربة اطنابها في بلادهم فاشترك معهم كثيرون من اولئك الضباط وجاهروا بطلب الاصلاح اي باعادة القانون الاساسي وجعل حكومة البلاد العثمانية دستورية نيابية مثل سائر البلدان الاوربية . ولما رأى رجال الحكومة ان هذا الطلب عادل وانهُ لا بدَّ لهم بمقاومة الجيش قرَّ رأيهم على اعادة القانون الاساسي واجابة حزب تركيا الفتاة او جمعية الاتحاد والترقي التي انَّما ضباط الجيش فصدر امر جلالة السلطان باعادة القانون وحلف على العمل بهِ امام شيخ الاسلام والنيشانجي الجواسيس وامر بانتخاب النواب لمجلس المبعوثان واسند مناصب الوزارة الى الوزراء الذين اشارت بهم جمعية الاتحاد والترقي الى ان يجتمع مجلس المبعوثان وتسند الوزارة الى زعمائهِ . ولقد كنا نثبت في المقطم جريدتنا اليومية عيوب الحكومة الماضية ولا غرض لنا الاَّ الارشاد الى مواقع الخطإ لاصلاحهِ والاشارة الى المفاسد لازالتها ومرَّت عشرون سنة من حين انشاء المقطم الى ان صدرت الارادة السنية باعادة القانون الاساسي ونحن جارون في خطة

واحدة تمدح ما تراهُ مستحقًّا للمدح وتذم ما تراهُ مستحقًّا للذم من اعمال الحكومة الماضية . وصغار الاحلام يظنون انا نمدد بالدولة العثمانية تقسمها وما تمديدنا الاَّ بالحكومة العثمانية او الحكومة الحميدية التي كانت سائدة في ذلك الحين

ولم يحن الوقت الآن للبحث في تاريخ هذه الثورة التي قلبت الحكومة العثمانية من حكومة استبدادية الى حكومة دستورية وذكر افذاذ الرجال الذين كانت لهم اليد الطولى فيها والدماء التي اريقت في سبيلها . ولكن لا بدَّ من فعل ذلك كلهِ حالما تتوطد اركان مجلس المبعوثان وحينئذٍ تكون مجلدات المقتطف العشرين من خير المصادر لجمع الحقائق التي يتألَّف منها تاريخ هذه الثورة الشريفة وتكون الاعمال التي عملتها جمعية الاتحاد والترقي والاقوال التي فاه بها زعماؤها من ادلّ الادلة على نيالة الامَّة التركيَّة وكرم اخلاقها

وقد اشتهر من هؤلاء الزعماء اسم ضابطين من ضباط الجيش وهما انور بك ونيازي بك واثَّر عملها في نفوس الامَّة العثمانية عمومًا تأثيرًا دعاها الى الاهتمام بانشاء بارجتين حربيتين تسميها باسميهما اعترافًا منها بفضلهما فأبيا ذلك . وطلبا ان تسميا باسم مدحت باشا واضع القانون الاساسي واحمد نامق كامل المنشىء التركي البليغ الذي رقَّى مدارك امتهِ بكتاباتهِ

وقد جرى لمكاتب التيمس مع انور بك احد هذين الزعيمين حديث اعرب فيهِ عن مقاصد جمعية الاتحاد والترقي فآثرنا اثباتهُ هنا لانهُ من اقوى الادلة على نيالة مقاصد هذه الجمعية وحصافة رأيها وحسن نظرها في العواقب قال المكاتب

جرى لي حديث طويل طلي مع انور بك هذا الصباح قبل مغادرتي لسلانيك وهو يجيد الفرنسوية فكان يكلمني بها بتأنٍ وتروٍ وتواضع ويشرح سياسة جمعية الاتحاد والترقي باسهاب ويخبرني بما تنوي فعلهُ في المستقبل وهو من اوجه اعضائها كما لا يخفى . وهاك الاقوال التي قالها تقلتها وهو ينوه بها وارسلتها لتنشر برضاهُ وموافقتهِ قال

" تراني اشتغل في مكتب سياسي ولكن ارجو ان تعلم اني لست زعيمًا لثورة بل جندي اضطرتهُ الاحوال الى الاشتغال بالسياسة . فقد سامتني التقادير الى هذا المكان لا اني وان كنت قد انتظمت بين اعضاء جمعية الاتحاد والترقي منذ اعوام لم اقدم على عمل عمومي حتى وشى بي جواسيس المابين وصدر اليَّ الامر بالذهاب الى الاستانة فلم امتثل الامر بل فعلت كما فعل رفيقي نيازي بك فالتجأت الى الآكام وكان من وراء ذلك اني نلت شهرة لم اكن اطلبها ولا كنت اسعى اليها ولكن يعلم اخواني الضباط لحسن الحظ ان منتهى غايتي وانتهى مناي خدمة وطني بكل انتفاع

اما الثورة فثورة وطنية لا ثورة عسكرية لانها ثورة امة باسرها على حكومة اوصلتها الى شفا اليأس والقنوط وليس الجيش صاحب الامر والنهي فيها بل هو خادم الامة المنفذ لارادتها التم لغائيها . هذه حقيقة اريد ان ترسخ في الاذهان . اما جمعية الاتحاد والترقي فلقائمة الآن مقام مجلس المبعوثان وهي تشير على الحكومة بما يجب عليها فعلهُ وتقدها بالرأي وتطلعها على كل ما تهم معرفتهُ في المسائل العمومية

وقد كانت هذه الثورة ثورة على استبداد المابين ولكن اللجنة تؤيد السلطان الملك الشرعي ما دام يحترم الدستور

اما الدول الاوربية فاللجنة تروم اكتساب ثقتها باجتناب كل ما يسوؤها . وقد عاد النظام الى مكدونية الآن لا بفعل الدول بل لان تأثير الثورة فيها كان تحريك عوامل الصلح والسلام بين اهليها . واما مسألة استرجاع الدول لضباط الجندرمة من مكدونية فمن المسائل التي يتعلق بالدول حلها وتتحمل من نفسها بطبيعة الحال لانهُ اذا بقي النظام مستتبًا في مكدونية فان الدول تسترجع جنودها طبعًا لزوال الحاجة اليهم

واما الجيش العثماني فجمعية الاتحاد والترقي تريد اجراء الاصلاح التام فيهِ . فينبغي للرعايا العثمانيين ان ينالوا كلهم نصيبهم من الخدمة العسكرية مهما كانت اديانهم ومذاهبهم فكما ان الجيش البريطاني في الهند مؤلف من المسلمين والبراهمة والسك والمسيحيين كذلك يجب على المسيحيين ان ينتظموا في سلك الجيش العثماني ويقفوا فيهِ جنبًا لجنب مع واخوانهم المسلمون . وكذلك يجب اصلاح نظام الجيش وجعل طريقة التعليم والتمرين فيهِ اصلح والعمل بها اسهل مما هو عليهِ الآن وتوسيع المجال للافراد حتى يظهروا ما امتازوا بهِ ويتقوى روح التعاون والتضامن بينهم . وقد كانت عزائم الضباط تثبط في ما مضى والذين يجدون ويجتهدون منهم يوشى بهم الى المابين ويتهمون بالتآمر على الفتن واما في المستقبل فسيكون المجال فسيحًا في الجيش لكل من يجدُّ ويقصد التقدم والنبوغ فيهِ والخلاصة ان الذي تريدهُ هو جيش وطني لا جيش اسلامي فقط

وليس للجامعة الاسلامية محل في خطة جمعية الاتحاد والترقي . والقطر المصري خارج عن نطاق اعمالنا ومراميها وحزب تركيا الفتاة يأبى التعرض لعمل الحكومة الانكليزية المجيد في مصر ولا يعير المهيجين والمحرضين فيها اقل مساعدة او التفات فهمُّ اللجنة كلهُ هو اصلاح تركيا وترقيتها على المبادىء الدستورية واملنا ان نجد في ذلك تأييدًا من حكومة الملك ادورد وميلاً الينا وعطفًا علينا من الحكومة الانكليزية " . اه

قال الكاتب . فهذه هي كانت ذلك الضابط العثماني الشاب الذي اكتسب بسالته وسمو اخلاقه مزيد الاحترام والحب والاكرام من الشعب وهو لا يزال في الثانية والعشرين من عمره يستخدم النفوذ الذي حازهُ بحكمة ودراية تحكيان حكمة اقطاب السياسة المجربين وحنكة ذوي الخبرة المدربين . انتهى

وقد اشتهر هذان الضابطان الصغيران في رتبتيهما في الجيش الكبيران بقلبيهما ونفسيهما اشتهاراً عظيماً فطبّق اسماهما الآفاق وتحدّث العثمانيون والاجانب بصيتهما فنرفت الصحف العثمانية اسم كل منهما بكلمة (قهرمان حريت) اي بطل الحرية

وبازي بك يوزباشي في الجيش العثماني ولد في رزنه من ولاية موناستير ونشأ فيها وهو اشد شكيمة واقوى عضلاً واصبر على الحرب والقتال من رفيقهِ انور بك . كلفتهُ الدولة مطاردة العصابات البلغارية منذ خمسة اعوام فقام بمهمتهِ خير قيام الاَّ انهُ كان كلما قبض على رجال عصابة ترد اوامر الاستانة الى المتصرف او القائمقام باخلاء سبيلهم . ولما علم ان لا فائدة من تعبهِ وتعتيهِ الثوار قصد عن ذلك واخذ يفكر في طريقة اخرى ينجي بها البلاد مما وقعت فيهِ . ثم انشأت جمعية الاتحاد والترقي فرعاً لها في سلانيك فانضم اليهِ واصبح من اقدر رجالهِ واتقدهم كلهم . ولما قررت الجمعية وجوب استعمال القوة كان بازي بك اول من استنفرهم الى القتال فنفروا . وهو يناهز الخامسة والثلاثين حسن الطلعة يرّاق العينين تدل ملامحهُ على الفروسية والشجاعة والاقدام

وانور بك ارق من صديقهِ عاطفة وانحل جسماً . ولد في الاستانة وتخرج في مدرستها الحربية ثم انتظم في سلك الفيلق الثالث فبلغ درجة يكباشي فيهِ . وهو من خيرة الضباط الذين قضى في متدونية زماناً طويلاً فاثرت فيهِ حالها الاخيرة تأثيراً عظيماً ورأى البلاد تخرج من يد الدولة رويداً رويداً فاخذ مع اخوانهِ الضباط يفكرون في طريقة يصلحون بها تلك الحالة فلما تأسس فرع جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك دخل فيهِ واحكم صلات المودة بينهُ وبين بازي بك وبقية اخوانهِ وكان من خيرة الرجال العاملين على نشر الآراء الحرة بين طبقات ضباط الجيش . فلما دنت ساعة العمل واستنوضت الجمعية همة اعضائها نهض في مقدمتهم برجالهِ وانضم الى بازي بك فكان روح تلك النهضة الشريفة للاصلاح والحرية

هذان هما البطلان اللذان يعزى اليهما الفضل الاكبر في تخليص الدولة العثمانية مما كانت فيهِ كما يعزى الى الذين جاهروا بالسنتهم واقلامهم من احرار العثمانيين